دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: أعلام الفكر الإصلاحي والسياسي في الوطن العربي

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة الثانية عشرة: خير الدين التونسي حياته وأطروحاته الإصلاحية

تمهيد/

لاشك أن المؤرخ الذي يتصدى بالمعالجة لتاريخ المنطقة العربية عموما وتونس على وجه الخصوص خلال الفترة الحديثة، يستوقفه اسم خير الدين التونسي، الذي ارتبط بفكر النهضة العربية الحديثة، فهو يذكر بوصفه رائدا من روادها، وعلما من أعلامها، فقد أشرف على قاطرة الإصلاحات التي مست ميادين متنوعة كما أخرج مؤلفا اخترقت شهرته الآفاق، تضمن برنامجا إصلاحيا، يمكن القول، بأنه قد اختزل مجموع ما سعى النهضويون العرب إلى تحقيقه في القرن التاسع عشر.

فمن يكون هذا الرجل؟ وما هي الإصلاحات التي باشرها؟ وفيم تبرز قيمة الأفكار التي بثها في كتابه الذائع الصيت: أقوم المسالك؟

أولا: مولده ونشأته:

ترجح أغلب الكتابات المؤرخة لحياته أن يكون تاريخ ميلاده، قد كان ما بين عامي 1820و1822م، وتبدو المعلومات شحيحة حول مولده وصباه، أما هو فقد سجل في مذكراته بأنه شركسي الأصل، فقد عائلته صغيرا بعد اختطافه في إحدى المواجهات العسكرية العثمانية الروسية، لتتم المتاجرة به في سوق الرقيق باسطنبول، حيث عاش مراحل طفولته عند مالكه نقيب الأشراف تحسين بك لينتهي به المطاف عند باي تونس عام 1837م، وأصبح منذ ذلك الوقت في رعاية القصر وخدمته، وهناك تدرج في التكوين العلمي والتدرب الإداري، فتعلم القراءة والكتابة، ودرس العلوم الشرعية،لكن تكوينه الأساسي كان في ميدان الحربية، وبالاحتكاك بعدد من الفنيين الفرنسيين، تمكن من إتقان الفن العسكري الحديث، وتعلم اللغة الفرنسية.

ثانيا: وظائفه ومهماته:

لقد سمحت له الكثير من المواصفات المتعلقة بالفطنة والذكاء، من أن يتدرج في المناصب والمسؤوليات في أعلى هرم الحكم في تونس، فكانت أول مهمة له هي مرافقة الباي أحمد في زيارته إلى فرنسا عام 1846م وفي عام 1853م، أرسله الباي إلى باريس لمعالجة قضية خلافية، تتعلق بنزاع قضائي بين الحكومة التونسية وأحد وزرائها السابقين المسمى محمود بن عياد الذي فر إلى فرنسا، وحصل الجنسية الفرنسية، ومن هناك رفع دعوى تعويضات مالية، وقد تمكن خير الدين من كسب تلك المعركة القضائية واسترجاع مبالغ مالية معتبرة وبقي هناك أربع سنوات كانت له حقبة تثقيفية بامتياز، فكان يراقب حياة مجتمع سياسي كبير، وبعد عودته إلى تونس، عين وزيرا للبحرية سنة 1857م، واكتسب عضوية اللجنة التي أعدت وثيقة عهد الأمان في نفس العام، وبعد اعتماد أول دستور في العالم العربي والإسلامي عام 1861م، أصبح رئيسا للمجلس الكبير الذي كان بمثابة البرلمان.

اعتزل الحياة السياسية خلال الفترة 1862-1869م بسبب خلافات مع الوزير الأكبر مصطفى خزندار، بسبب سياسة القروض الأجنبية التي أنتهجها هذا الأخير، حيث تفرّغ خلالها لتعميق مطالعاته وأفكاره، بالاحتكاك بثلّة من المثقفين والرواد، على غرار أحمد بن أبي الضياف، ومحمد بيرم الخامس، وسالم بوحاجب، وتوج هذه المرحلة بإصدار كتابه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك " عام 1868م.

وفي عام 1869م عاد إلى دواليب الشأن العام بإلحاح من الصادق باي، ليتم تكليفه برئاسة اللجنة المالية الدولية، التي فرضتها القوى الأوربية المتنافسة، بعد عجز الدولة عن إرجاع ديونها، وفي عام 1873م أصبح رئيسا للوزراء، حيث قام طوال أربع سنوات، بإجراء إصلاحات عدة، فأسس جمعية لإدارة الأوقاف واهتم بإصلاح التعليم الزيتوني، وسنّ عدة نصوص تنظيمية في هذا المجال، وكان من أهم ما أقدم عليه، تأسيس المدرسة الصادقية نسبة إلى الصادق باي عام 1875م، وهي أول مدرسة حديثة في تونس، تدرس العلوم العصرية، كالرياضيات والفيزياء والكيمياء، وتعلم اللغات الأجنبية، مثل الفرنسية والايطالية والتركية،وجمع الكتب المبعثرة في المساجد، وكوّن بها مكتبة أهداها ألفا من كتبه، وأدخل تطويرات على مطبعة الدولة فأوكل لها نشر الكتب الأدبية والعلمية، ونظم سير الإدارة، ووضع مخططا عمرانيا لتحديث المدينة، ومدّ شبكة الطرق في البلاد.

وبالرغم من تلك الإصلاحات والنجاحات، إلا أن المؤامرات كانت تحاك ضده من أكثر من جهة ولعل في مقدمتها، مصطفى خزندار، علاوة على القوى الاستعمارية، التي رأت فيه حاجزا أمام مخططاتها، وهو ما أدى إلى إبعاده عن دائرة السلطة عام 1877م، ليتلقى بعدها دعوة من قبل السلطان عبد الحميد، للانتقال إلى عاصمة الخلافة، حيث أسندت إليه وظائف استشارية، وبلغ مرتبة الصدر الأعظم سنة 1878م، وهي المهمة التي لم يمكث فيها سوى ثمانية أشهر،قدم خلالها مساهمات هامة لصالح السلطنة، حيث ساهمت عدة وقائع

في إبعاده، ولما كان من غير الممكن الرجوع إلى تونس، فقد آثر إكمال بقية حياته في الأستانة بعيدا عن الأضواء، حتى وفاته عام 1890م.

ثالثا:الإصلاح في فكر خير الدين:

اشتهر خير الدين بكتاب " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، وقد صدر هذا المؤلف في حياته عام 1867م، وتشير العديد من الشهادات، إلى أن الرجل قد استعان في عملية الصياغة والتحرير بالشيخ سالم بوحاجب، وقد كتب المؤلف باللغة العربية أول مرة، وأشرف خير الدين بنفسه على ترجمة المقدمة إلى الفرنسية التي تولاها أحد مساعديه، وقد صدرت بباريس عام 1868م، أما الترجمة التركية، فقد تأخرت إلى غاية 1878م، وبعد مرور قرن من الزمان، صدرت ترجمة انجليزية للكتاب عام 1967م.

لقد أوضح أنه استقى بعض معلوماته وآرائه في " أقوم المسالك "، من كتب أوربية في السياسة والتاريخ والاقتصاد والقانون، ذكر منها كتابا في التاريخ للمؤرخ ديبون ويت Dupont Withe وروح الشرائع لمونتسكيو، وكتاب فرونكفيل في القانون وهؤلاء معاصرين له، كما أشار إلى الدور الذي لعبته مؤلفات روسو وفولتير في الثورة الفرنسية، مما يعني أنه قرأها، أو قرأ أهمها، ومن بين الكتابات المتنوعة التي ذكرها لمفكرين آخرين، ورد اسم ديكارت، ونيوتن، وفرانسيس بيكون، وتعرض بالذكر أيضا إلى الكثير من الأعمال الفنية المسرحية لمشاهير، على غرار وليام شكسبير.

في الواقع، أراد خير الدين، أن يظهر عبر هذا المؤلف، ما هي أسباب قوة المجتمعات وتمدنها، وبنوع خاص دور الدولة في المجتمع، وذلك بتحليل تلك المجتمعات الأشد قوة، والأكثر تمدنا في العالم الحديث، وأن يثبت أن السبيل الوحيد في العصر الحاضر لتقوية الدول الإسلامية، إنما هو في اقتباس الأفكار والمؤسسات عن أوربا وإقناع المسلمين المحافظين، بأن ذلك ليس مخالفا للشريعة، بل منسجما مع روحها.

ومن الملفت تأكيده أن تقدم أوربا، لم يكن قط ناجما عن كونها مسيحية، فالمسيحية دين يستهدف السعادة في الآخرة، لا في هذه الدنيا، ولو كانت هي سبب التقدم الدنيوي، لكانت دولة البابا أرقى الدول،لا أكثرها تأخرا في أوربا، وعلى هذا، فليس على الدول الإسلامية، أن تتبنى الدين المسيحي، إذا هي حاولت اقتباس أسباب التقدم الأوربي، بل عليها فقط، أن تتبنى ما يعادل المؤسسات الإسلامية القديمة من مؤسسات حديثة، موضحا أن تلك المؤسسات، تتمثل في الوزارات المسؤولة، البرلمانات، وحرية الصحافة وعلى هذا الأساس، يكون تبني المؤسسات الأوربية، تطبيقا لروح الشريعة، وتحقيقا لغايتها.

وكانت صيحة التحذير التي أطلقها مدوية، حيث أشار إلى أن الممالك التي لا تأخذ بالتنظيمات الحديثة، سوف تجد نفسها ضعيفة، وستسقط غنيمة سهلة للأقوياء، وهذا ما يهدد المسلمين، فإذا لم يكن في دينهم ما يمنعهم من الاقتباس، فما الذي يجعلهم يرضون هذا المصير لأنفسهم، والأغرب من ذلك، أنهم لا يتورعون عن اقتباس المنافع الكمالية مثل الملابس وأثاث السكن، ثم يرفضون اقتباس الضروري مثل الحرية والعلم، وحدد الأطراف التي رأى أنها تعوق هذا الاقتباس، وهي: - بعض علماء الدين المتزمتين – بعض رجال السياسة ممن يتمسكون بنظام الحكم المطلق- العامة من المسلمين الذين يبادرون بإدانة كل جديد ولو كان نافعا.

انتقد الإصلاح على الطريقة التي عرفت بتركيا في عصر التنظيمات، وكتب الآتي: " مبدئيا، يستحيل غرس مؤسسات بلد في بلد آخر، حيث تختلف طباع الناس وعاداتهم وثقافاتهم، وكذلك ظروفهم المناخية...منذ أربعين سنة، حاولت العديد من المرات الحكومات التي توالت على الدولة العثمانية، إعادة تنظيم المؤسسات السياسية والإدارية والقضائية للبلد، غير أن جهودها لم تفض إلى نتيجة، لأننا لم نسع بصراحة وحزم إلى إصلاحات جذرية، مناسبة للحاجيات الحقيقية للبلد ولتقاليد أهله ".

ختم خير الدين مقدمته الإصلاحية، بمصارحة معاصريه، بأن قضية الإصلاح، لم تعد قضية اختيارية ونقل عن بعض أعيان أوربا قولهم: " إن التمدن الأورباوي تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار، إلا إذا حذوه، وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق ".

رابعا:الحرية في فكر خير الدين:

تعد الحرية من المعاني التي حازت باهتمام رجال الإصلاح في القرن 19م بشكل لافت، ولقد تردد هذا اللفظ عند خير الدين في أقوم المسالك، ففي المقدمة، تداول اللفظ ما يقارب خمسين مرة، وقد عنى الرجل بتفسير اللفظ ومعانيه الأصلية والفرعية عند الأوربيين في زمانه، وعقد لذلك فصلا خاصا، حيث قسّم الحرية إلى شخصية، من جهة وسياسية من جهة أخرى، فالشخصية، هي ما يعرف اليوم بالحريات المدنية وعرّفها خير الدين بأنها: " إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته بأبناء جنسه لدى المحاكم، بحيث أن الإنسان لا يخشى هضيمة في ذاتها، و في سائر حقوقه.

وقد اهتم الرجل، بمظهر ثالث للحرية زيادة على بعديها الشخصي والنيابي، حيث قال عنه:" وبقي وراء ذلك للعامة شيء آخر، يسمى حرية المطبعة، وهو أن لا يمنع أحد منهم،

أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرنالات، التي تطلع عليها العامة، أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس، ولو تضمن الاعتراض على سيرتها "، وقد أقر التونسي، بأن هناك تفاوت بين البلاد الأوربية في استخدام هذه الحرية، بين الإطلاق والمشروطية، بحسب خصوصيات كل مملكة وشعب.

لقد ذهب خير الدين التونسي بعيدا، حينما ربط بين التقدم العمراني والحرية، وقد أضاف إليها عنصرا هاما هو التنظيمات الدنيوية، فكان بذلك مفكرا، جمع بصورة لا نظير لها من قبل، بين الأصالة والحداثة، وبين الإسلام وابن خلدون والماوردي من ناحية، ومنجزات العصور الحديثة من ناحية أخرى، فأعطى بذلك للإسلام وجها أكثر حيوية وإشراقا، وفاعلية وقدرة على تخطي الصعاب، وعلى التقدم.

خامسا:الوطنية والإنسانية في فكر خير الدين:

تنضح كتابات خير الدين بإيمان عميق بالأمة الإسلامية، التي تجمع بين أبنائها وحدة الدين، وبالخلافة الإسلامية التي رآها مستمرة في سلاطين آل عثمان، الذين تمكنوا من جمع ممالك المسلمين، تحت حكمهم العادل، وما أنجزوه من فتوحات، وكان فخورا كثيرا بمنجزاتها، وحريصا على وحدتها، وعارض كل حركة استقلالية، ويعزو البعض موقفه هذا، إلى نظرته الإستراتيجية لأحوال العصر، حيث رأى بأن بقاء الدولة العثمانية متحدة قوية، خير ما يحمي المسلمين من مطامع الدول الغربية.

وإذا كان هذا المصلح، لم يحدد معنى الوطن، غير أنه أظهر حبّه لتونس وطنه بالتبني، وقد وصف في المذكرات التي تركها لأولاده، تلك الجهود التي بذلها لترقية العلم والزراعة والصناعة فيها، وتحسين أحوالها الاقتصادية، وكان يسعى لإنقاذها من الخطر الأوربي، الذي بدأ يستشرفه من خلال ربطها بالدولة العثمانية.

لقد عبّر عن شعور عميق بوحدة الإنسانية، فلاحظ أنه :" إذا اعتبرنا ما حدث في هذه الأزمان من الوسائط التي قربت تواصل الأبدان والأذهان، لم نتوقف أن نتصور الدنيا بصورة بلدة متحدة، تسكنها أمم متعددة، حاجة بعضهم لبعض متأكدة، وكل منهم، وإن كان في مساعيه الخصوصية، غريم نفسه، فهو بالنظر إلى ما ينجر بها من الفوائد العمومية، مطلوب لسائر بني جنسه ".

سادسا:خير الدين في عيون الدارسين والمعاصرين:

يقول الباحث التونسي أحمد عبد السلام، فكتاب " أقوم المسالك "، يدل بمحتواه على أن المثقفين التونسيين، لم يبقوا في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يعيشون في مجتمع ضيق، منغلق على نفسه ولم يبقوا ضمن ذلك المجتمع في برج عاجي، بعيدين عن

التفكير في الشؤون العامة، بل صاروا مهتمين بالعالم الذي يحيط بهم، وخاصة بأوربا وسياستها وحضارتها، وقد اهتموا بصورة خاصة، بأسباب تقدم الأوربيين في ذلك العصر، فوجدوا أن السبب الذي يقف وراء ذلك، يتمثل في التنظيم السياسي والاقتصادي.

ويرى أحد الباحثين، أن المقاربة التي أقامها التونسي، بين ما يسمى بالمنظومة المفاهيمية لليبيرالية السياسية، والمعجم المفاهيمي لفقه السياسة الشرعية، تتمثل مشكلتها في أنها تناست أو غفلت ولم تنتبه إلى اختلاف الفضاء الابستيمي لكل من طرفي المقاربة، ففي حين، أن المنظومة المفاهيمية للأحكام السلطانية، قد أفرزها فضاء معرفي قروسطي، نجد بالمقابل أن المنظومة الليبيرالية، المتعلقة بالتنظيم المدني للمجتمع والسياسة تنتمي بشكل كلي إلى عصر الأنوار الأوربي، الذي استقل عن أية مشروعية، سوى تلك المستمدة من العقل وحده.

وتعتقد الباحثة نازك سابا يارد، أن أحد أوجه الصراع الفكري، يتمثل في موقف خير الدين التونسي من مسألتي الحرية والمساواة، حيث أغفل كل ما يناقضهما في الإسلام، فهو بحسبها، لم يتعرض إلى قضية الرق الذي يبيحه الإسلام، وينافي الحرية الشخصية التي أيدها في أطروحته، ولم ينتقد ظاهرة بيع الرقيق التي كانت شائعة في عصره، كما غضّ الطرف عن الأحكام الدينية التي لا تساوي بين الحر والعبد، أو بين المسلم والذمّي، ولم ينتبه إلى أنه قد أوّل الإسلام على ضوء المبادئ السياسية الحديثة، فاختار منه فقط ما يلائم هذه المبادئ، وفسّره على ضوئها، واسقط عنه ما ينافيها.

وبالنسبة لآلبير حوراني : " يبدو أن خير الدين وضع هذا الكتاب، وهو على شيء من الاعتقاد أنه يفعل للعصر الحديث، ما فعله ابن خلدون لعصر أسبق، فالمؤلفان تونسيان، وضعا كتابيهما في فترة عزلة عن الحياة السياسية، وعالجا فيهما كل على طريقته، قضية نشوء الدول وسقوطها، وقد قسم كل منهما كتابه إلى مقدمة لعرض المبادئ العامة، والى أجزاء عدة،إلا أن التشابه يقف عند هذا الحد ".

وفي التحاليل، التي خلص إليها الباحث فهمي جدعان، رأى بأن كتاب خير الدين، يكشف عن عقل مستنير، يبحث عن موقف يقفه العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن 19م، إزاء المدنية الأوربية، موقف أكثر نضجا من ذلك الذي اتخذه الطهطاوي، وأقرب إلى المحيط العربي الإسلامي، الذي تمثّله ابن خلدون.

خاتمة:

لقد كان خير الدين من ألمع رجالات الإصلاح في تونس والعالم العربي، واستطاع بحكم خبرته وتمرسه ومؤهلاته، أن يعطي لتونس دفعة نهضوية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأن يكون جسرا للأفكار الأوربية إلى جنوب المتوسط، وقد كان هواه

عثمانيا، حيث ركّز في أعماله على محاولة إنقاذ الرجل المريض، وإبقاء روابط الاتصال بين اسطنبول وولاياتها، وقد وجدت أفكاره الجريئة معارضة داخلية من القوى الرجعية والانتهازية، وتكالبا على مساعيه من البلدان الأوربية المتربصة، مما أدى إلى إقبار تلك الانجازات، ومع ذلك فإن سمعته قد اخترقت الآفاق، وسيظل لأجيال رمزا تنويرا لكل المنطقة العربية الإسلامية.

//

المصادر والمراجع:

- خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، دار الكتاب المصري، القاهرة، 2012م.

- صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ط1، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2001م.

- آلبير حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939م، دار النهار للنشر، بيروت، د.ت.

- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

- أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986م

- فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ط3، دار الشروق، د.م، 1988م.

- نازك سابا يارد، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، نوفل للنشر، د.م، 1992م.